

المحاضرة رقم (02)

الهجرة الأندلسية للمغرب الأوسط وأثرها في ازدهار الحركة العلمية

عرف العهد الزياني في المغرب الأوسط ازدياد عدد المهاجرين الأندلسيين إليه نتيجة سقوط قواعد بلادهم الكبرى كقرطبة سنة (633هـ / 1236م) بلنسية سنة (646هـ / 1248م) وقد أستقر معظم هؤلاء النازحين كوهرا ن ومستغانم وتنس والجزائر وهنين. بينما فضلت جماعات أخرى منهم الاستقرار بتلمسان، نظرا لمكانتها العمرانية، والعلمية والحضارية وكذا النشاط التجاري الكبير الذي ميزها في المغرب الأوسط، إلا أن الهجرة الكثيفة لهؤلاء الأندلسيين كانت في القرن 9هـ / 15م وذلك إثر سقوط مملكة غرناطة سنة 897هـ / 1492م، حيث تدفقت أعداد كبيرة من الأندلسيين نحو بلاد المغرب عامة والأوسط خاصة بسبب الاضطهاد الإسباني، المتمثل في محاكم التفتيش.

إلا أن الهجرة الأندلسية نحو بلاد المغرب الأوسط خلال القرن 9هـ / 15م كانت تعاني من مصاعب انعدام الأمن المهاجرون للنهب الأمر الذي دفع بالكثير منهم إلى مواصلة هجرتهم نحو الدولة الحفصية، وبلاد المشرق.

لقد كان من هؤلاء المهاجرين إلى المدن الزيانية رجال العلم والقلم وكذلك الحرفيين الذين حملوا معهم فنونهم من الأندلس، وكان معظم هؤلاء الوافدين ينحدرون من أسر كبيرة. هذا ما جعل سلاطين بني زيان يعملون إحضارهم إلى بلاطهم والاستفادة مما يحملونه من حضارة وفكر يُعوّل عليهما في البلاط الزياني حيث شغل الكثير منهم الوظائف السياسية التي لا يستهان بها. أما تأثيرهم في الحركة الفكرية والعلمية فقد عرف هعن هؤلاء الأندلسيين تفوقهم عن سواهم في العلوم بصفة عامة هذا ما جعل المجتمع الزياني يستفيد من معارفهم العلمية والأدبية، ومن خبرتهم الفنية فأدى إلى تكوين نشاط فكري كبير ليس في المغرب الأوسط، بل في جميع بلاد المغرب الإسلامي.

كان بسبب هجرة علماء الأندلس لتلمسان أن أصبحت وارثة للعلوم الأندلسية. وبهذا ساهم هؤلاء العلماء الأندلسيون في تطور الحركة الفكرية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني الذي كانت تربطهم بسكانه اتصالات مباشرة منذ القرون الأولى لذا قرروا الهجرة إليه، بعد سقوط معظم حواضرهم العلمية، وبهذا سوف ينقلون إليه علومهم. وآدابهم وفنونهم. ولقد تجلّى تأثير علماء الأندلس، في تنظيم حلقات التعليم بالمدارس والمساجد وخصوصا المسجد الجامع بتلمسان الذي

سوف يصبح بالإضافة إلى وظيفته الدينية معهد للتدريس، إثر نزوح علماء الأندلس إليه وقد ضاهى في ذلك جامع الزيتونة بتونس والقرويين بفاس، والأزهر بمصر، كما أن هذا الجامع تخرج منه جيل من العلماء البارزين في مختلف العلوم الدينية، كالأصول والتفسير والتوحيد... وغيرها من العلوم الدنيوية الأخرى، هذا وكان لتدفق هاته الهجرة على بلاد المغرب الأوسط واستقرارها فيه، دور كبير في دفع حركة التعريب في جميع جهاته، ويعود ذلك لاحتكار هؤلاء الأندلسيين لميدان التعليم فيه، حيث نقلوا إليه طريقتهم الخاصة في هذا الميدان والتي تتمثل في تعليم الأطفال القرآن الكريم والحديث، والقواعد الأساسية لمختلف العلوم كما برزوا في تعليم روايات القرآن والأنواع قراءته ونشروا خطهم الخاص بهم حتى تغلب على الخط الإفريقي.

ومن الأندلسيين برزت أسر أندلسية أنجبت عددا من العلماء الذين ساهموا بقسط وافر، في دفع الحركة الفكرية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني إلى الأمام خاصة في مجال العلوم الدينية التي غدوها بمؤلفاتهم القيمة، أسرة العقباني التي برز فيها العالم الكبير سعيد العقباني (ت 811هـ) وقاسم بن سعيد العقباني (ت 854هـ) الذي درس عن والده وغيره من العلماء فبرع في العلوم الدينية وولي خطة القضاء بتلمسان وأخذ عنه حفيده محمد بن أحمد العقباني وابنه محمد بن قاسم العقباني الذي كان فقيها بارعا.

وأخيرا يمكن أن نخلص أن تلك المحنة الإنسانية التي ألمت بأهل الأندلس، كانت خيرا وبركة على الحركة الفكرية في المغرب الأوسط التي بفضلهم ازدهرت وأصبحت حواضر المغرب الأوسط تضاهي مراكز الحضارة الإسلامية الكبرى.